

الخبيس 2010-02-04

888- في شرف صحبة نجيب محفوظ



في شرف صحبة نجيب محفوظ وقراءة في كراسات التدريب

الحلقة التاسعة

الثلاثاء 1995/1/3

رويدا رويدا أصبحت - وسمحت لنفسى أن- أضيق بهذه الجلسة، جلسة الثلاثاء، لكننى أنظر في وجه الأستاذ وهو يستمع إلى يوسف القعيد يدش الأخبار بسرعة وتمثيل وكاريكاتيرية، وهو يضحك ويشارك، وهو يعلق ويهتم، فأعجب له ومنه، كيف يحتمل كل هذا التنوع من الفروق الفردية بين كل هؤلاء الناس، كلما نظرت في وجهه وجدته مسرورا بالجلسة حريصا عليها، كما أعلم أنه ينتظرها، ربما مثل سائر اللقاءات وأكثر، (عكس توفيق صالح الذى يشاركنى شعورى بالتحفظ على جلسة الثلاثاء، وليس تماما عكس زكى سالم الذى يفرح لفرح الأستاذ مهما كانت مشاعره الخاصة). كلما رأيت ذلك مكررا هكذا، تعلمت أن الإنسان الخي كما خلقه الله هو الذى لا يضيق بأحد، هو الذى يجد مع كل لقاء متعة، هو الذى يعرف كيف يضبط موجة تواصله مع موجة تواصل من يتواصل معه أيا كان، ولم لا؟ أليس هكذا خلقنا، وليس معنى هذا أن الأستاذ يساوى بين الناس بطريقة فوقية مانعة، فهو يجب هذا، ويضيق بذلك، ويعلق على زيارة أحدهم، ويسخر من وصولية آخر، لكنه يحافظ على العلاقة صادقة نقية، بعيدة عن الأحكام الفوقية، بما فى ذلك هذا اللقاء العوامتى الثلاثى، إذن ما دام هو مسرور هكذا بهذا فليكن ذلك مصدر سروري، ولأحاول أن أتقص زكى سالم، ولأشارك بالقدر الذى أستطيع، لكننى لا أستطيع كثيرا، ثم إنها جلسة تضم رجال أعمال مثل عماد العبودى، وحسن ناصر، ومحمود كمال، وجها لوجه مع رجال إعلام يمثلون اليسار

والناصرية والثقافة، وكلنا في ضيافة أ. د. إبراهيم كامل في عوامته "فرح بوت"، كان الأستاذ قد حكى لي أن د. إبراهيم كامل أستاذ الهندسة ورجل الأعمال المشهور وصاحب هذه العوامة "فرح بوت" قد جعل ضيافة هذا اليوم هدية منه للأستاذ وصحبه، وحكى لي الأستاذ بعض النوادر التي تتعلق بالأكل والشرب مجاء، مما لا أذكرها تفصيلاً، لم أر هذا المضيف الطيب، ولا مرة واحدة، ولا سمعت أنه جاء يعود الأستاذ بعد سلامته، ربما فعل ولم يذكر ذلك أحد أمامي، وإن كنت قد علمت فيما بعد أنه كان دائماً يستأذن حين يحضر لزيارة المجموعة والترحيب بالأستاذ والاطمئنان عليه.

في لقاء الثلاثاء هذا الأسبوع أشار الغيطاني إلى تحفظه على أن يوقع محمد سلماوى على الأحاديث التي يجريها مع الأستاذ، وهي التي يأخذها سلماوى مشافهة من الأستاذ كل سبت، (اليوم الوحيد الذي لا يخرج فيه الأستاذ ويخصمه للقاء الزوار، وأهمهم سلماوى، بانتظام)، كنت قد عرضت على الأستاذ أن يعود لإملاء "وجهة نظر" لتنتشر في نفس الركن الذي كان ينشر فيه وجهة نظره الأسبوعية في الأهرام، وإذا به يجيبني أن سلماوى قد اقترح نفس الاقتراح، وأنه وعده بأن يفي به، وقد كان. كان سلماوى يوقع تحت الحديث باسمه دون ذكر صفة الحاور، وهذا ما أشار إليه الغيطاني في تحفظه. لكن الأستاذ أمر أنه "وماله؟" يوقع كما يشاء مادام لم يقل أن هذا كلامه هو، قلت له أنه كان يمكن أن يكتب قبل توقيعيه: "أجرى الحديث فلان" بعد أن يوقع "نجيب محفوظ" حتى يستقبل الناس كلماتك بتوقيعك من جديد، بدلا من أن يضع توقيعيه هو، أو أنه كان يمكن أن يترك الحديث بدون توقيع، مكثفيا بالعنوان: وجهة نظر نجيب محفوظ"، ومع ذلك أصر الأستاذ أنه ابدأ وأنه: "ما يضرش"

أحسست بالتحفز الجاهز من الغيطاني والقعيد كلما ذكر اسم سلماوى، واعتبرته من قبل هذا التنافس الطريف الذي كنا نسمع عن بعضه بين شعراء وأدباء ومفكرين في العشرينات والثلاثينات، ولم أعتبره خلافا قاسيا، بل إنه أصبح مادة طريفة للمداعبة و"النكش"، وذكر الأستاذ أنه لم يكن يعرف سلماوى قبل نوبل، وأن تكليفه بإلقاء كلمته عندما استلمت كريمةه جائزة نوبل كان مصادفة، حيث أن قريب سلماوى (ربما شقيق زوجته أو زوج أخته، كان سفيرا لنا في السويد)، وأنه يتذكر أيضا أن ثمة علاقة مصاهرة بين سلماوى وبين توفيق الحكيم، فتبرع أحد الجالسين يذكر أن أخته كانت زوجة لابن توفيق الحكيم، مال الأستاذ إلى الخلف وكأنه وجدها وقال "هكذا"!!

جرى تعليق على كتاب نشر حديثا (ليس حديثا جدا) عن خطابات توفيق الحكيم إلى زوجة ابنه، واعترض البعض على ما جاء في هذا الكتاب من تسطيع أحيانا، ومن حرارة مفرطة أحيانا أخرى، وأنه كتاب لا موقع له: لا في الأدب ولا في السيرة الذاتية، ولم يذكر المتحدث اسم جامع الخطابات ولا ناشرها، ولم يعلق الاستاذ، وتذكرت حساسيته المفرطة نحو أي حديث عن شؤونه الخاصة أو شئون أسرته، فكيف لو عبث عبث بهذه المنطقة مثلما صنع كاتب هذا الكتاب عن توفيق الحكيم، واحترمت تحفظه وحذره وامتناعه عن التعليق.

فتح موضوع طلب وزير الداخلية حسن الألفي تصوير لقطة (ربما تليفزيونية) مع الأستاذ بمناسبة عيد الشرطة، وتصورت أنه سيحضر ليبادل الخديث أو التهينة أو ما شابه، وتحفظت إزاء هذا الطلب، كما تحفظت قبلها - ونجحت- على زيارة المفتي (مفتي الديار) للأستاذ (بعد ما سمعت عن زيارة محمد الغزالي - ثم د. أحمد فؤاد أبو المجد) وكانت وجهة نظري أن يجيب محفوظ هو يجيب محفوظ، ولا ينبغي أن نسمح باستقطابه في أي ناحية، فإذا زاره المفتي - والحالة كما نعلم بينه وبين شيخ الأزهر، فنحن نضعه في جانب في مواجه الآخر، وهذا نوع من الاستعمال ينبغي الحرس على تجنبه، وبالقياس رأيت أن ظهوره مع حسن الألفي سوف يضعه في جانب واحد مع الحكومة في مواجهة الجماعات وغيرهم، وتذكرت الهمس الذي أثاره الدفاع من أن الحادث ملفق من قبل الحكومة عملا على زيادة كره الناس للجماعات من خلال تعاطفهم وحبهم لنجيب محفوظ، وبرغم عبثية هذا الكلام الذي ناقشناه سالفاً، وبرغم أنني أعرف يقيناً أن موقف محفوظ لا يقاس بأنه مع الحكومة أو ضد الحكومة، أية حكومة، وإنما هو له موقفه الخاص من كل حدث، ومن كل شخص ثم إن موقفه من الجماعات التي حاولت قتله هو شديد التسامح والعطف والدعاء لهم بالهداية، لكل ذلك اعترضت على طلب وزير الداخلية، وثار خلاف، وغلب الرأي لمعظم (أو ربما كل) الجالسين أنه لا مانع، وأهم يوافقون على رفض الاستقطاب الأول (المفتي مقابل الأزهر) لكنهم لا يوافقون على أن ثمة احتمال لأي استقطاب لما هو: "الحكومة مقابل الناس"، بعد أن استمع الأستاذ إلى ما استطاع من هذا النقاش الحاد، راح يقول إنه مدين للشرطة بلا أدنى شك، سواء من ناحية الأمن بصفة عامة أو من ناحية ما نال من رعاية في مستشفى الشرطة، وأنه لا يستطيع أن يرفض لهم طلباً، ثم إن الوزير كلم السيدة حرمه وأخذت رأيه ووافق، وهو لا يملك أن يتراجع - ولأنني بدأت أعرف طبعه فقد سارعت بالتراجع عن موقفى احتراماً وتعلماً، تعلمت كيف نهتم بأداب السلوك الصغيرة قبل الكبيرة، وكيف يفى بالوعود البسيطة وغير البسيطة، وهو يحرص على الجاملات العادية في حدود نظامه الحكم، ومعاني العرفان بالجميل والألتزام برده ورأفة باعتراضاتنا أراد أن يخفف الأستاذ الموقف فأثار تحفظاً فكها يقول: إن الحرج الوحيد بالنسبة لمقابله الوزير هو أن يتكلم معه بصوته هذا المتحشرج، فيصبح دعاية سيئة للشرطة ومستشفى الشرطة وكأنهم لم ينجحوا في شفائه تماماً!!

وضحك عاليًا، فضحكنا فرحين.

ثم أثار الغيطاني أساساً، ثم العقيد مسألة ضرورة الحذر في الخروج في نفس الموعد المرات القادمة، ومحاولة تغيير الميعاد، والمكان باستمرار، وخاصة بعد صدور الحكم الذي يرجح أن يكون فيه إعدام واحد أو أكثر، وانقبض قلبي من هذا الاحتمال، رفضت المبالغة في الخوف هكذا، فما زلت أعتبر أن ما حدث حادث عابر، من شاب أعمى نال أو سينال جزاءه، فهو ليس موقفاً عاماً من جماعة قتلة. حاولت أن أقاوم التيار أنا وزكى وسالم، ولم أنجح، وقلت دعوا لي هذا الأمر، فأنا

المتعهد بتدبير الأمان والتوقيت، وسوف أخطركم بالتغيير إن لزم الأمر، ولم يكن في نيتي أية محاولة لتغيير ما اعتدنا عليه، ولو بعد بضعة أسابيع، فقد عرفت طبعه، وكم هو يتعلق بنفس المكان، ونفس الكرسي، وأحيانا نفس الجار في كل جلسة، فحرصت أن أحافظ على تثبيت إيقاع مواعيد الأستاذ مهما بدت المخاطرة، ليس استهتارا، ولكن رفضا للحياة تحت سيف خطر لا يمكن تجنبه إذا صمم القدر، ولم أحاول أن أشرح تفاصيل نواياي له حتى لا أثير مخاوفه التي تغذيها بشكل ما مخاوف هؤلاء الصحية، وتحفظات السيدة الكريمة زوجته الفاضلة الحريصة على سلامته أكثر منا جميعا.

الأربعاء 1995/1/4

الأستاذ منزعج انزعاجا متوسطا، ومتحفز ومستعد للدفاع عن رأيه، أخبرني السيدة زوجته أنه سيذهب ابتداء من غد إلى المستشفى، لأنه توجد آلات هناك لابد أن يستعملها أثناء تدريبات العلاج الطبيعي، ولم أفهم دوافع رغبة السيدة زوجته وإصرارها على مثل ذلك، وقد سبق أن طرحته وعارضته، المهم أن الأستاذ كان خائفا تماما من أن يفرض هذا الاجراء عليه، وكان في ذلك مثل طفل يخشى العودة إلى مدرسة تخرج منها بنجاح متوسط، وقارنت تمسكه بالمستشفى سابقا وخوفه من العودة للبيت، بتمسكه بالبيت حاليا ورفضه التردد على المستشفى، وتأكدت من علاقته بالأمكنة والاستقرار فيها لدرجة الاحتماء بها أيا كانت، وطمأنته والسيدة حرمه إلى درجة أقل، ووعده أنه إذا كان في الأمر أجهزة، فالدولة أبدت استعدادها لنقلها إليه أو حتى لشرائها له، ثم يتبرع بها لأي مركز تأهيل بعد انتهاء العلاج، وكل ذلك كان من تأليفي لطمأنته، ولو أنني كنت مصرا في نفسي على أن هذا محتمل ولو على حسابي الخاص، وأصررت على رأيي رغم الاعتراض المتكرر من الزوجة الفاضلة الحريصة على أفضل فرص للتأهيل، وحين تأكد الأستاذ من إصراري وقدرتي على تحمل المسؤولية، انفجرت أساريره وقبلى وأنا منصرف هاتفا:

"يا مفرج الكروب"

وأحبهته كثيرا جدا.

الجزء الثاني

من كراسات التدريب (1)

صفحة (10)

نجيب محفوظ

نجيب محفوظ

نجيب محفوظ

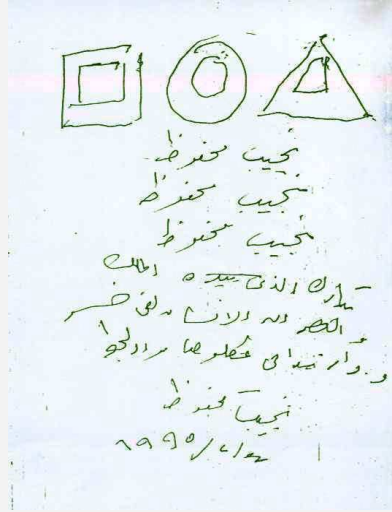
تبارك الذى بيده الملك

والعصر إن الانسان لفى خسر

و دار ندامى عطوها وأدجوا

نجيب محفوظ

4-2-1995



القراءة

في هذا اليوم، كتب اسمه: "نجيب محفوظ" ثلاثا دون كريمته، لم ينسهما، هو لا ينسهما أبدا، أكرمهما الله، وفي نفس الوقت لا يذكرهما كثيرا في أحاديثه، طمأنه الله عليهما في كل حال.

ثم

"تبارك الذي بيده الملك..." هذا ما ظهر مما نعتبه قمة جبل الوعى، لا أكثر، هذا الفرض الذى يسمح لى أن أكمل بنفس المنهج (الخلقة الأولى نشرة 27-9-2007):

"تبارك الذى بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا"

لماذا جاء الموت قبل الحياة في هذا التنزيل الكريم، توقفت طويلا أمام هذا الترتيب، فالمنطق السطحى يعتبر الموت هو لاحق للحياة، نحن نعيش ثم نموت وليس العكس، وبالتالي يمكن ببلاهة أن ننتظر أن يكون التسلسل هكذا "الذى خلق الحياة والموت" لكن الحق تعالى في تنزيله الحكيم، أن الذى بيده الملك قد خلق الموت، الحياة، وليس خلق الحياة فالموت.

كتبت في نقدي لمحمة الخرافيش فصلا كاملا عن الموت، بل لعل كل نقدي كان ينبعث من ذلك، أكتفى هنا بنص موضح ذلك :

"..... الموت لا الولادة الجسدية هو البداية، الحياة هي إرادة التخلق من يقين الموت والوعي به، منذ السطر الأول يعلن محفوظ أن ملحمته تدور "... في الممر العابر بين الموت والحياة" (دورات الحياة وضلال الخلود لمحمة الموت والتخلق في الخرافيش) قراءات في نجيب محفوظ

(لم يقل "في الممر العابر بين الحياة والموت) فالموت هو الأصل، والحياة احتمال قائم،

وهذا الترتيب هو ما جاء في الآية الكريمة "الذي خلق الموت والحياة"

ما قمت به وأنا استعمل المنهج الذي أتبعه، هو أنني رجعت إلى الآية الكريمة فوجدت أن لها وضع خاص حتى في الأحاديث النبوية الشريفة، فذرت أن سورة "تبارك" قد حضرت في وعيه كلها أو على الأقل بدايتها، وأن هذه القمة التي ظهرت لنا في تدريبه هذا اليوم، إنما تعبر عن كل ما تلى هذه الآية الكريمة، من أن الموت هو أصل الحياة وهو باعثها، وأن الرحلة بين الموت والحياة هي ليبلونا أيما أحسن عملا، وأعتقد أن الذي يرجع إلى الحلقات السابقة مباشرة يمكن أن يرصد موقع العمل في وعي محفوظ، من أول "الإخلاص في العمل" (الحلقة السادسة بتاريخ 14-1-2010) حتى "العمل عبادة"

الآية الثانية التي كتبها بعد ذلك مباشرة، هي بداية سورة العصر، وهي تأتي في نفس السياق من أنه لا ينجو من الصفة الخاسرة في هذه الحياة (إن الإنسان لفي خسر)، إلا من يؤمن، ويعمل، وأذكر أنني أشرت إلى كيف أن والدي أخبرني وأنا حول الثامنة، أنه حين كان يضيق بضيق وقته، أو يفسد مزاجه كان يقرأ صورة العصر لا أذكر كم مرة، أو لعله يظل يقرأها في سره حتى ينصرف الضيف الثقيل، وحين كبرت وحضرتي مراجعة معنى ذلك، تصورت أن والدي بانصرافه عن ضيفه الثقيل بقراءة هذه السورة هكذا مكررا، قد يوصل رسالة "عدم الانتباه"، فينصرف الضيف، ما علينا، عذرا للتكرار إن كنت قد ذكرت ذلك سالفًا.

أن تتلاحق بداية سورة تبارك، بما وصل إلينا الآن مع بداية سورة العصر، ربما لا يحتاج إلى بيان التكامل فيما بينهما أكثر من ذلك.

بلى ذلك شطر بيت أبي نواس في إيوان كسرى المهجور:

"ودار ندامي عطلوا وأدلجوا"

في الصفحة الأولى من التدريب، (الحلقة الرابعة 31-12-2009) كان شطر هذا البيت قد جاء هكذا "ودرا ندامي غادروها"، لكنه هنا يثبت الأصل وكأنه يصحح نفسه تلقائيا عطلوا غير غادروها. (عطل الأبل: خلأها بلا راع، عطل

البئر: ترك وردها، وفي التنزيل وبئر معطلة وقصر مشيد"،
عطل الدار: تركها ضياعاً "وكل ذلك يختلف عن مجرد غادروها"
عادت ذاكرة الأستاذ حادة كالسيف وبرغم غرابة وندرة
استعمال مثل هذه الألفاظ، فهو قد صحح نفسه وراح يكتبها
اليوم كما هي "ودار ندامى عطلوها وأدجوا"

(، والذي يجعل الصبر جميلاً، هو ما أنهى به يوميته هذه:
"إن الله مع الصابرين"

السياق هنا الآن يختلف، فهو يرتبط من ناحية برينا وهو
يبلوننا أينما أحسن عملاً، وبأن الإنسان لا ينجو من الخسران
المبين، إلا إذا آمن وعمل، وبالتالي يأتي هذا البيت بأصله
أقرب إلى أن يحضر إلى ذاكرتنا أو إلى وعينا إيوان كسرى
المهجور الذي قال فيه أبو نواس هذا البيت بعد أن عطلوا
إيوان كسرى، ثم غادروه بليل ("أذْلَجَ" القوم ساروا من أول
الليل، "أذْلَجَ" القوم: ساروا في آخر الليل)، البيت كله
يقول:

ودار ندامى عطلوها وأدجوا بها أثر منهم جديد ودارس

حكاية هذا البيت أنه يروى أن أبا نواس ونفر من
أصحابه -كما يروى عن الصوفي في زهر الآداب وثمر الألباب- أنهم
رأوا في قصر كسرى آثاراً في مكان حسن تدل على اجتماع كان
لقوم زاروه قبلهم، فأقاموا خمسة أيام يشربون ثم سألوا أبا
نواس ليصف لهم هذه الحادثة فقال أبياتا منها:

ودار ندامى عطلوها وأدجوا بها أثر منهم
جديد ودارس

مساحب من جر الرقاق على الثرى وأضغاث ريحان جني
ويابس

إلى أن قال:

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع
التساوير فارس

.....

.....

بعد أن قلب الصفحة إلى الصفحة التالية رقم (11)
أكتشفت أن ذكر أبو نواس، وصحبه ومزاجه ولهوه هو أقرب إلى
ما جاء في التدريب في اليوم التالي، وكأن مزاج الأستاذ
الرائق الطروب قد امتد في نفس الجو حتى كتب ما يلي:

صفحة 11

نجيب محفوظ

أراك عصي الدمع

امتي الهوى

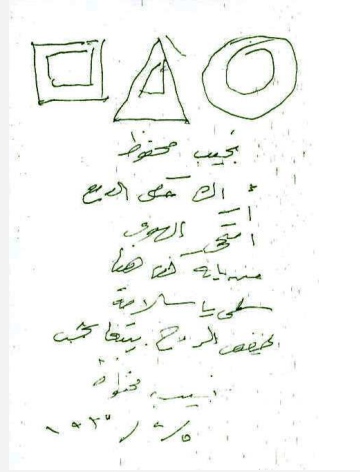
من قد إيه كنا هنا

سلمى ياسلامة

خفيف الروح بيتعاجب

نجيب محفوظ

1995/2/5



القراءة

ربما هذا ما كنت أعنيه حين قلت عن كتابة التدريب في اليوم السابق أنها انتهت بأبي نواس وهو يصف آثار ما جرى في إيوان كسرى، في جو من البهجة والأنس والمصحة والشرب، وأنه امتد عند الأستاذ إلى اليوم التالي، فيلاحظ هنا أنه

أولاً: كتب "نجيب محفوظ" مرة واحدة (ربما لم يكن محتاجاً إلى تسخين اليوم)

ثانياً: أن كل التدريب كان أغان جميلة، غرام، وعتاب، وشوق وبهجة، بحيث لا يحتاج ما ظهر على قمة الوعي اليوم إلى البحث عن بقية أعماقه:

"أراك عصي الدمع"، "امتي الهوى"، "من قد إيه كنا هنا"، "سلمى ياسلامة"، "خفيف الروح بيتعاجب"

ولو أعدنا ترتيب هذه البهجة، وربطنا احتمال أن يكون هذا اليوم قد حمل له رسالة قرب السلامة، فاستجلب كل هذا الحب والطرب، فإن الأمر يمكن يبدأ باستشعار السلامة لينتهي بخفيف الروح وهو يتعاجب فيكون الترتيب:

سلمى ياسلامة

من قد إيه كنا هنا

أراك عصي الدمع،

امتي الهوى

خفيف الروح بيتعاجب

الذى يسمع عن شيخ ، في هذا العمر، أصابه ما أصاب
 شيخي، وعن ظروف مقاومته، وصعوبة حياته اليومية، لا يمكن
 أن يحظر على باله أى احتمال أن يكون هو هو "خفيف الروح
 بيتعاجب"، أو أنه يتذكر "من قد إبه كنا هنا"، أو أنه
 ينتظر أن "الهوى يجى سوا"،

هذا الرجل "العصى الدمع"، حين تنسم رائحة
 السلامة، (سالمة يا سلامة) راح يرقص بالكلمات هكذا

.....

ياه ، يا شيخي الجليل

لماذا ذهبت هكذا مبكرا ونحن أحوج ما نكون إلى أن نتعلم
 منك كيف الحياة؟؟

لم قلتها شيخي "كفى" !!!

لكن ما قدمت علمنا "الطريق" إليه عبر شعابها:

لما عرفت سبيل دريك نحوه،

كحماً إليه :

ودخلت في عمق العباد تعيد تشكيل الذى غمرته أمواج
 الضلال، حتى تشوه بالعمى والجوع والجشع الجبان،

شيخي الجليل:

ما دمت أنت فعلتها

فانعم بها

واشفع لنا

أن نحمل العهد الذى أودعنا

شيخي الجليل:

ثم مطمئنا،

وارجع إليه مُبدعاً،

عبر البشر،

وادخل إليها راضيا،

أهلاً لها.

هذا هو ما أنهيت به قصيدتى في رثائه، وقد عاد إلى الآن
 وأنا ألومه في نهاية قراءتى لصفحة التدريب رقم (11)

ياه، يا شيخي الجليل

لماذا ذهبت هكذا مبكرا؟